رسالتان فى تاريخ الجزيرة العربية

رسالتان جاءتا في أرشيفات أجنبية رسمية لحكومتين مختلفتين · ومع انهما تدوران حول قضايا وأحداث متباعدة فانه يجمع بينهما انهما تعطيان لنا صورة عن شعور وفكر بعض حكام منطقة الخليج أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أمور عامة هامة في المنطقة · انه لصحيح أن المادة التاريخية في أرشيفات الدول الأجنبية عن منطقة الخليج في تلك الفترة غنية وكثيرة ، ولكن أغلب هذه المادة يعنى بالعلاقات الخارجية ، ويعكس وجهة نظر هذه الدول ومصالحها في أحداث المنطقة ورغم ذلك يجد الباحث هنا وهنالك مادة قليلة ولكنها هامة لأنها توضح لنا وتبين شعور حكام المنطقة وأهلها من سياسة ومصالح الدول الأجنبية وأحداث بلادهم ·

الرسالة الاولى تعود الى سنة ١٨١ ـ ١٨٨٢ ومسرح أحداثها البدع (الدوحة) وهي من أرشيف مكتبة حكومة الهند في لندن · والرسالة الثانية تلغراف أرسله الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني سنة ١٩٠٤ الى السلطان العثماني في اسطمبول ونصه محفوظ بالأرشيف الالماني في بون ·

شرق الحديث

للدكتور محمد مرسي عبدالله

المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود

ازدهرت البدع (الدوحة) كمركز تجاري مستقر في الخليج في عهد الشيخ قاسم بن محمد الثاني · وجذب هذا الانتعاش تجار الهنود البانيان الى هذا الميناء الناشىء · ولكن قدوم التجار البانيان في تلك الفترة كان يختلف تماما عن قدومهم طوال فترات التاريخ الماضية لقد قدموا هذه المرة بعد أن استقر للبريطانيين الحكم في الهند · وأصبح هؤلاء التجار الهنود يمثلون شركات ملاحة بخارية ووكالات تجارية ضخمة في بومباي وغيرها من موانىء الهند الكبيرة · كذلك قدموا كرعايا بريطانيين يتمتعون بالحماية البريطانية التي اتخذت في كثير من الأحيان ذريعة امتداد النفوذ البريطاني · وفي أواخر سنة ١٨٨١ ضاق الشيخ قاسم بن محمد الثاني بنشاط هؤلاء التجار الهنود الذين استمتعوا بحمايته لهم التي كلفته كثيرا ولكنهم رفضوا دفع أية التزامات كما زاحموا بامكانياتهم الضخمة تجار اللؤلؤ في بلاده · وكان بعض هؤلاء التجار يقوم بعمل البنوك اذ يقرضون تجار اللؤلؤ المال بالربا لتمويل عمليات الغوص وهو نشاط أصبح وقفا عليهم لرفض المسلمين هذا اللون من الكسب وفي يناير سنة ١٨٨٢ أبدى الشيخ قاسم بن محمد الثاني في رده على روس المقيم البريطاني في بوشهر رغبته الملحة في رحيل الهنود البانيان الى البحرين ·

وفي مايو سنة ١٨٨٢ قرر ارسال أحد موظفيه المنشي ميرزا أبو القاسم الى الشيخ قاسم بن محمد الثاني . ولكن مفاوضاته فشلت . وتذكر التقارير أن الموقف ازداد سوءا بعد أن وصل الى الدوحة وكيل الشيخ قاسم بن محمد الثاني في بومباي ومعه أخبار ثورة عرابي في مصر ضد الامتيازات الاجنبية والنفوذ البريطاني والفرنسي . وقد ذكر له وكيله أن اخراج قاسم للأجانب من بلاده هو حق من حقوقه . وعلى أثر ذلك ضيق الشيخ قاسم الخناق على البانيان الهنود فرحلوا في يوليو الى البحرين . وجد المقيم البريطاني بالخليج وكذلك حكومة الهند في سياسة قاسم بن محمد الثاني تحديا لنفوذهم بالخليج . كما خشوا أن تمتد سياسة اخراج التجار الهنود من قطر الى بقية الامارات . ولكن حكومة الهند لم توافق على اقتراح روس باستخدام القوة وبضرورة دفع الشيخ قاسم بن محمد الثاني لغرامة مغالى فيها قيمتها ٤٠ ألف روبية وخفضت الغرامة الى ٨ آلاف روبية فقط . وفي أكتوبر أرسل روس رسالة الى الشيخ قاسم بن محمد الثاني لدفع هذه الغرامة وحملها له أغا محمد عبد الرحيم . وفي البدع جرى لقاء مهم رفض فيه الشيخ قاسم بن محمد الثاني عودة البانيان الهنود بالشروط التي طلبها روس كما امتنع عن دفع الغرامة حتى يعود البانيان الى البدع وتسوى حقوقهم حسب الاصول وفي أثناء المناقشة قال الشيخ قاسم بن محمد الثاني « أنه اذا كان هنالك ضغط واستخدام قوة من جانب البريطانيين فسوف يجمع رجاله ويقاتل » . قال أغا عبد الرحيم : « هل تحلم أنك عرابي باشا الثاني ؟ » قال قاسم « نعم أنا اثنين عرابي » وترك المجلس وذهب .

وفي أول نوفمبر سنة ١٨٨٢ قدم روس بمركب حربي وبعد مفاوضات طويلة حصل على مبلغ ٨ آلاف روبية من الشيخ قاسم بن محمد الثاني .

في مجموعة المراسلات التي دارت حول هذه القضية بين المقيم البريطاني في الخليج وحكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية تظهر لنا أمور هامة تفسر التطورات السياسية والفكرية في الخليج في ذلك الوقت ومنها :

أولا ـ الدور الذي لعبته مدينة بومباي في تاريخ الخليج الحديث كانت بومباي صورة للغرب الحديث بكل تطوراته ومدنيته الجديدة وهناك كل عام تجمع تجار اللؤلؤ العرب يتبادلون أحاديثهم حول قضايا المنطقة وقضايا العرب عامة وكان فتح قناة السويس ومرور السفن البخارية بمصر وساحل الشام واشتراك تجار اللؤلؤ في المجلات والصحف العربية سببا في التعرف مرة أخرى ولو بصورة بطيئة على ما يجري

في أنحاء الوطن العربي . ونحن نرى من سياق أحداث قضية التجار الهنود كيف كان دور وكيل الشيخ قاسم بن محمد الثاني في بومباي في نقل أخبار الثورة العرابية في مصر . وقد استمر هذا الدور الذي قامت به بومباي حتى الحرب العالمية الأولى ثم شاركها في هذا الدور بعد ذلك فتح الطريق البري بين دمشق وبغداد سنة ١٩٢٥ ففتحت طريقا آخر للصحف الى البصرة ومن هناك نقلت الى موانىء الخليج العربية عن طريق شركات الملاحة البخارية والبريد .

ثانيا ـ كما يوضح أحداث هذه القضية التجاوب السريع بين سكان الخليج وبقية أجزاء الوطن العربي ، وهو تجاوب يزداد مع الأيام مع تطور ونمو وسائل الاتصال وبعد الحرب العالمية الثانية وظهور الاذاعات والصحف وشركات الطيران التي ربطت مدن الخليج بعواصم الدول العربية مباشرة تطور التجاوب الى ما نشهده اليوم فالعالم العربي جسد واحد اذا تألم منه جزء تداعى له بقية الأجزاء بالسهر والحمى .

والرسالة الثانية كتبها القنصل الألماني في بيروت بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٩٠٥ الى وزير خارجية في برلين جرافين فون بيلو
وتشرح هذه الرسالة أحوال الجزيرة العربية التي هزتها الاحداث بعد أن قام الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بحركته التاريخية واستعاد الرياض عاصمة آبائه وأجداده في فبراير سنة ١٩٠٢ من يد نائب ابن الرشيد أمير حائل . وكان لهذه الحركة امتدادها التاريخي وأثرها الكبير في توحيد أجزاء الجزيرة العربية فيما بعد وقيام المملكة العربية السعودية بانجازاتها الكبيرة في دنيا العرب والمسلمين .

في الفترة ما بين سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٥ وهي فترة عصيبة في تاريخ قيام الدولة السعودية أثبت الملك عبد العزيز بن سعود مقدرته العسكرية والقيادية في الدفاع عن الرياض . وامتد نفوذه في نجد حتى أنه في ربيع سنة ١٩٠٤ كان قد أخذ الوشم والقصيم وعنيزة وبريدة وهدد حائل عاصمة ابن الرشيد . واستطاع ابن الرشيد أن يوهم الباب العالي أن الملك عبد العزيز مؤيد في حركته من الانجليز عن طريق الشيخ مبارك أمير الكويت . وفي مايو سنة ١٩٠٤ أرسلت قوة تركية كبيرة لعون ابن الرشيد . ولكن ابن سعود هزمهم جميعا في معركة البكيرية ثم معارك أخرى في سبتمبر وأكتوبر من نفس هذا العام .

وكان الملك عبد العزيز رحمه الله رجل دولـة وسياسة الـى جانب مواهبه العسكرية والقيادية وتهيأت له فرصة ليحفظ للترك ماء وجههم فينسحبوا من نجد وكانوا في تقديره العدو الأول له وقتذاك · وقد نجح في عقد صلح مؤقت معهم سنة ١٩٠٥ · في أواخر تلك الأيـام القاسية كتب القنصل الألماني في بيروت رسالـة في فبراير سنة ١٩٠٥ يحكي لنا ما تم وجرى سنـة ١٩٠٤ في قلب الجزيرة العربية · يتحدث القنصل الألماني في كتابه عن العلاقات بين الشيخ قاسم بن محمد الثاني أمير قطر وبين الملـك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والشيـخ قـاسم بن محمد وقتذاك من دعائم الحركة الاصلاحية للتوحيد وذو كلمة أثيرة ومكانة لدى السلطان العثماني ·

نقل لنا القنصل الألماني نص رسالة لاسلكية أرسلهـا أمير قطر في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ الى السلطان العثماني في اسطمبول والى والي البصرة وقد نشرت هذه الرسالة اللاسلكية جريدة الاهرام القاهرية في مصر بتاريـخ ٣ فبراير سنة ١٩٠٥ تقول البرقية :

« من قاسم بن ثاني الى عرش السلطان حفظه الله ونصره ان اخلاصي وطاعتي وشرفي يدعوني لنصيحة أهل ملتي وسلطاني سمعت نصيحتي أم لا · لقد قلت من قبل ان ارسال قوات ضد ابن سعود لا مناسبة لها ولا نفع بهـا · ولا بد مـن حل المشكلة بين الدولـة وابن سعود بطريقة أخرى · ان حكمـة سيدنـا الخليفة وقائد المؤمنين ، خاقان البحرين ، ورحمته لرعاياه أمر معروف ومشهور · انه ليس من أخلاقه الحميدة السماع للوشاة الذين لا يقدرون عواقب أعمالهم بل ينظرون فقط لمصالحهم الخاصة · ليس هنالك أبدا مـا يدعو لارسال قوات ضد ابن سعود · ان العداء بينه وبين ابن الرشيد الذي استمر بينهم مدة طويلـة لا يدعو أبدا لارسال قوات الدولة ضد ابن سعود ·

ان ابن الرشيد له اصدقاء لدى الباب العالي يرشيهم بالمال وهم الذين يحققون رغبته في الانتقام لقد ناقشت وتكلمت في لغـة واضحة في قضيـة ارسال قوات ضد ابن سعود واننا نستطيع حل القضية بالسلام دون أن نسمي أهل نجد وسكانها ثوار ودون تكلف نفقات كبيرة من جانب حكومتنا دون نفع مغنم ·

ان ابن سعود ليس ثائرا · ان الذيـن صوروه لأميـر المؤمنين ثائرا هم في الحقيقة اعداء العقيدة والملة الذين لمصالحهم الخاصة فقط باثارة النزاع والخلاف

مثلما فعلوا في مناسبات أخرى مثلما فعلوا على سبيل المثال في قضية الكويت · في كل حادثة هامة أسمعتكم راي والآن أسمع أن الحكومة قررت ارسال قوات الى نجد للمرة الثانية وحيث ان الدافع لهذا القرار مخاوف لا أساس لها ، فانني احساسا بمسئوليتي نحو ضميري وعقيدتي أحارب هذا القرار الذي لا فائدة منه ولا نفع · ان النفع الحقيقي والنصر الكبير هو وحدة المسلمين وجميع رعايا الدولة العثمانية· ان سكان نجد لم يفعلوا اكثر من واجبهم وهو استعادة بلادهم حسب التقاليد العربية بعد أن جعل ابن الرشيد من نفسه حاكما هناك وقد قام بذلك بعون المشايخ والرؤساء · لقد أثار ابن الرشيد واتباعه للحكومة بما أسموه خطط ابن سعود ضدهم · وفي الحقيقة ان ابن الرشيد يعمل لمطامحه الخاصة ان أحسن وسيلة نافعة لاستعادة النظام في نجد هي اعطاء الفرصة لابن سعود وعلماء نجد لطاعة السلطان وخليفة المسلمين · واذا ما رفضوا ذلك وعارضوا وأصبحوا ثوارا فهنا نستخدم الوسائل الاخرى ضدهم ·

لقد سمعت أن ابن سعود قد سأل مرات عديدة أن ترسل الحكومة بعثة لبحث علاقاته مع ابن الرشيد وأن تمنع حقد وعداءات ابن الرشيد ضده ان هذا هو الحل النافع الصالح الذي يوقف القتال بين المسلمين كما يحقق مصالح الباب العالي ·

وعلى أي الاحوال انني أطلب باسم العدالة والاخلاص ألا ترسلوا قوات ضد ابن سعود وأسأل الباب العالي أن يجعل من شيخ نجد أميرا رسميا وألا يكون هنالك تفرقة في المعاملة بين ابن سعود وابن الرشيد كما آمل ألا يهمل الباب العالي نصيحتي · ولكن الأمر على كل حال لصاحب الأمر ·

قاسم بن محمد الثاني

ولم يكن التعاون بين الشيخ قاسم بن محمد الثاني والملك عبد العزيز بن سعود في حدود هذه الرسالة اللاسلكية فقط ·· بل تذكر التقارير البريطانية في السنوات بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٤ كيف كان ساحل عمان وقطر مركزين كبيرين لتجارة السلاح في منطقة الخليج وكيف كانت قطر خاصة مصدرا رئيسيا للسلاح الحديث الى الرياض حيث تشتد الحاجة اليه لنصرة الحركة الاصلاحية النامية في قلب نجد ·

هاتان هما الرسالتان اللتان أحببت أن أعرضهما في هذا المؤتمر وفيهما شرح طيب لبعض جوانب هامة في تاريخ شرقي الجزيرة العربية الحديث ··

تعليق

حين ألقى الاستاذ المحاضر هذا البحث ، وفتح الباب للمناقشة ــ نهض الاستاذ الدكتور أحمد العفاني ، فاعلن التشكيك على ما ياتي :

أولا : كذب الابراق أن يصدر من قطر بحجة أن قطر ليس فيها لاسلكي وهذه ملاحظة واردة في حدود طاقة قطر وما كان موجودا بها ، غير أنه قد تناسى وجود الانجليز في الخليل حيث سيطرت بريطانيا على هذا الساحل ما عدا ساحل الاحساء الذي صانه الملك عبد العزيز .

ثانيا : وأيد هذا التشكيك حيث قال ان الامير قاسم بن ثاني كان صديقا لابن رشيد وخصيما للملك عبد العزيز لأنه يريد من وراء صداقته لابن رشيد وخصومته للملك عبد العزيز أن يمتد نفوذه لداخل الجزيرة في الاحساء ، وقد أجاب الاستاذ المحاضر بصحة الابراق فاقتضب الاجابة ولم يتوسع فيها فاستدركت ذلك في حديث مع بعض الأساتذة مما اعتبره تصحيحا لهذا الموضوع ردا على التشكيك وتأييدا للأستاذ المحاضر .

حين قلت له ان وجود الانجليز مسيطرا على الخليج قد قطع العلاقة بين بن ثاني وبن الرشيد وأوار العلاقة ترتبط بالصداقة بالملك عبد العزيز، من هنا قد تغير موقف الامير قاسم بهذه الصداقة الجديدة مع الملك عبد العزيز فابرق الى السلطان لأن ثبات الملك عبد العزيز يكفيه نقمة بن الرشيد عن هذا التغيير .

أما أن قطر ليس فيها لاسلكي فلا يعني عدم الابراق لأن الرسالة كتبها الامير قاسم بن ثاني فابرقت من لاسلكي البصرة .

هذا احتمال أو من احدى بواخر الاسطول البريطاني فلا تعدم بريطانيا الوسيط في هذه المصالحة .. الوسيلة لارسال هذه البرقيات .

من هنا مرة أخرى تثبت صحة الابراق ويتضح موقف الوئام بين قاسم بن ثاني والملك عبد العزيز .

محمد حسين زيدان